إلى قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف القلب ، فقال : « **أبصر الغيب بالغيب فآمن** » ، أو كما قال . فهذه نصرة الرب عز وجل .

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة ، فبقيت مخذولًا ، مأسورًا فى يدى الشهوة والهوى ، فإذا صار القلب مأسورًا ، فهو كملك مأسور فى يد العدو ، فإذَنْ تعذر عليه الأعوان والجند ، بل يذلون وينهزمون فى الملاهى والأباطيل .

المجاهدة

قال له قائل : فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة ، إذ قال : « **حق جهاده ؟** » .

فقال : اعتبر مجاهدٌ الظاهر ، وامتثل رجلين ، أحدهما سلاحه تام ، وحمل نفقة سنة ، وتجهز بما يحتاج إليه ، ورافق فى الطريق رفقاء ، وتبسَّط فى مَسِيرِه وطَرِبَ مع رفقائه ، وتلذَّذ برؤية الكون ولقاء الناس .

وفرح بما نُسب إليه من الجهاد ، والغزو ، فقيل : هذا فلان الغازى ، وطمعت نفسه فى علو المرتبة ، وارتفاع المنزلة

عن الناس ، واتخذ الجاه عندهم بذلك ، ونال الكرامة فى مسيره مقبلًا ومدبرًا ، وقلبه هاهُنا معلق بحب الدنيا ، وما خَلَّف فيها ، فهذا حاله فى الطريق حتى إذا بلغ المنتهى ، فعلى وده أنه لا يلقى عدوًّا أبدًا ، ولا يسمع بذكره ، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التى خلفها وراء ظهره .

حتى إذا لقى العدو ، وجاهد مجاهدة مراوغ ، ليس له صدق القتال ، يريد الروغان[1] . والنكص على عقبه ، والهرب ، حتى إذا انقضى الجهاد مر منصرفًا مسرعًا ، إلى شهواته ، التى حن إليها ، وإلى مأواه الذى قد ألفه ، ووطنه الذى قد استوطنه ، قد سلم بنفسه ، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته ، فجاء به كما ذهب به إلا النفقة ما أنفق فى مسيره ، وما أنفق أيضًا فقد طرب إليه وتلذذ ، وقضى مناه وشهواته بتلك النفقة .

فهذا قد سمى فعله هذا جهادًا ، فلم يكفر فعله ، بل يُعْطى ثواب نفقته غدًا ، وثواب عنائه وتعبه ، وأنه كَثَّر سوادَ المسلمين وأعانهم ، وشايعهم .

---

(١) راغ يروغ روغًا وروغانًا : حاد . وراغ إلى كذا أى مال إليه سرًّا وحاد . « لسان العرب » .

وَرَجُل أخذته حمية الإيمان ، فغار لربه ، فخرج يقصد محاربة عدو ربه انتقامًا وتعظيمًا على عدوه ، أو رجل أيِسَ من نفسه ، أن يخرج منه خير ينجو به ، ورأى قبح مذاهبه ، وسوء فعاله ، فضاق به الأمر من شراهة نفسه ، وقلة ضبطه لها ، فاغتاظ منها ، وحمى لربه على نفسه ومقتها ، وهاله عظيم خطره منها ، فقدمها إلى العدو لتحاربه ، لعله أن يُرْزَقَ الشهادة فيقتل ، ويغسّل بدمه سائر جسده ، حتى يلقى الله تعالى طاهرًا من أقذار المعاصى .

فهذا رجل خرج بهذه النية ، أو بتلك النية التى غار بها لربه وحمى له ، وهو أرفع درجة من هذا الذى برم بنفسه ، وأراد التطهر ، فلما لَقِى أَحَدُ هَذَيْن الْعَدُوَّ ، ونهمته فى عامة مسيره المحاربة – إمَّا غيرة لربه وحمية ، وإمَّا تطهيرًا لبدنه ، والظفر بالشهادة – ظهر منه صدق اللقاء ، فبادر وحارب وجاهد ، فلم يلبث أن صار قتيلًا ، وبالدماء مزمولًا ، وتبددت أعضاؤه من الضرب والطعن ، وتبدد سلاحه هكذا ، وهكذا ، من نهبة العدو ، وأخذت دوابه وجميع ما هناك ، وتقبل الله روحه ، فجعله حيًّا يرزقه عنده ، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله ، كما وصف تعالى فى تنزيله

قصة الشهداء ، فقال :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾[1] . إلى آخر الآية .

فصار روحه مقبولًا وصار عنده حيًّا فَرِحًا ، مستبشرًا مرزوقًا ، من غير تعب ولا كد ولا عناء ، فهذا حق الجهاد فى طلب الجهاد ، والأول رجل متحرٍّ للخير ، طالب للثواب .

فكذلك جهاد النفس حق جهاده ، أن يصدق اللقاء ، فلا تسلم منه نفس ولا مال ، فإذا أخذ فى المجاهدة تخلصت الهموم والأحزان إلى النفس ، وانقطعت اللذات والشهوات ، وتغير اللون ، ونحل الجسم ، وضعف البدن ، وذهب الفرح والتسلط ، واشتغل القلب ، فضعف عن طلب الدنيا .

قد خلص النكص فى المال ، وتعطلت الأمور ، ووجد المكاسب والأرباح ، وأدبرت الدنيا عنه ببهجتها ، وزينتها ، ولذتها وعزها ، وبهائها وملكها ، وصَفْوها وخِدعِها ،

---

(١) سورة آل عمران – من الآية رقم ١٦٩ .

وأقبلت الآخرة بحقائقها ، من البكاء والأحزان ، والاستكانة ، والصلاة ، والصيام ، والذكر ، والقرآن ، وأعمال البر ، فَشُغِلَ عن الأهل ، والولد ، وعن التلذذ بقربهم ، والأنس بهم .

فصار الولد يتيمًا ، والأهل كالأرملة ، والمسكن وحشًا ، وتعطلت الأوقات التى كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء ، وتبدل بها جوعًا ، ويبسًا ، وبالضحك بكاء ، وبالفرح حزنًا ، وبالسرور غمومًا ، وبالراحة نصبًا ، وبالنوم سهرًا ، وبالدعة تعبًا وضيقًا ، وبالغنى فقرًا ، وبالعز ذلاً ، وبالمدح ذمًّا ، وبالثناء طعنًا وعيبًا ، فلم تسلم نفس ولا مال ولا جاه ، ولا قَدْرٌ إلا ذهب كله .

فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه ، وشهواته ، ومناه ، وصار هواه كالقتيل ، فتخلص روحه عن هواه ، فتقبل الله روحه ، وأحيا قلبه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ووصل بقلبه إلى إلٰهه ، ففرح واستبشر ، فقلبه عنده فرح مستبشر ، حى ، فمن هاهُنا برز الصِّدِّيق على الشهيد لأن الشهيد احتسب بنفسه على الله تعالى مرة واحدة ، حتى قُتل .

والصِّدِّيقُ يحتسب نفسه ، فلم يزل يقاتل هواه فى كل حركة ، حتى قتل الهوى فخلص روحه وقلبه من الهوى ، فهذا غاية الصدق ، فسُمى صِدِّيقًا ؛ لأنه لم يبق فى نفسه منازع ، فصار البدن كله لربه مبذولًا بصدق منه ، لا منازعة للهوى فيه ، فكما صار الصِّدِّيق عنده فى الآخرة حيًّا مرزوقًا ، صار بالصدق هاهنا فى القلب به مرزوقًا ، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله .

كما صار الشهيد فى الآخرة بعد أن وصل إلى النعمة يشتهى أنْ يُرَدَّ إلى دار الدنيا فيقتل فيه،فصارت منيته كذلك الصِّدِّيق ، ماتت شهواته ، فصارت منيته ، ونهمته فى ذكره وعبادته ، ومنه قوله تعالى فى بعض الكتب : « أيها الصديقون تنَعَّمُوا بذكرى ، فإنه لكم فى الدينا نعيم ، وفى الآخرة جزاء » .

حدثنا ابن أبى زياد ، قال : حدثنا سيَّار ، عن جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار ، رحمه الله تعالى ، قال : قرأت فى بعض الكتب : « إن سَرَّكَ أنْ تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحْتَلْ فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهواته الدنيا يَفْرَقُ الشيطان مِنْ ظِلِّه » .

أفلا ترى أنه قال : إذا غَلَبْتَ شهوات الدنيا حَيِيتَ ؛ لأن القلب إذا كان فى ظُلمة الهوى وغفلته ، كان كالميت ، وليس بالميت ؛ لأن المْيتَ قلبُ الكافر ، وقلبُ الغافل كالميت ، وليس به حياة ، وقال : إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين ، فَعِلْمُ اليقين أن تعبده سبحانه كأنك تراه .

وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين فى تنزيله ، فقال : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[1] . فأخبر تعالى : أن بعلم اليقين ترى الأشياء : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾، أى غدًا ، يعنى الجحيم ، ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[2] .

فهذا حق الجهاد ، وأما الآخر فإنه رجل أراد مجاهدة نفسه ، فصام أيامًا ، ثم ترك ، واجتنب بعض الشهوات ، وتناول بعضًا ، وحزن مرة ، وفرح أخرى ، وبكى يومًا ، وضحك أيامًا ، وصام وصلى ، وساح مرة هكذا ، ومرة هكذا ، وحمل على نفسه مؤنًا كثيرة ، وأتعب نفسه من طريق أنواع البر ، من سهر الليل ، والحج والجهاد .

---

(١) سورة التكاثر – الآية رقم ٥ ، ٦ .

(٢) سورة التكاثر – الآية رقم ٧ .

إلَّا أن ذلك كله بهواه عمل ، حيث طرب ونشط ، لا بمجاهدة ، فهذا رجل يريد أن تسلم له نفسه وماله ، ويقضى شهواته ومناه ، ويكون مخلصًا ، فهذا غير محقق جهاده ، يُعْطى ثواب هذا التعب والعناء ، ويؤجر عليه ، ولكن لم يحارب الهوى ، فى كل موطن حتى يقتله ، فيكون قتيل الله تعالى ، يقتل روحه ، فيحييه ويفرحه بنفسه ، فالحرب من عندك والنصر من عند الله العزيز الحكيم ، فإذا نُصِرْتَ قتلت هواك ، وتخلص روحك منه وقلبك ، فَقَبِلَهُ ، وَحَيَّاه ، ونَوَّرَهُ ، وهداه ، واجتباه ، ورعاه .

الهوى

قال له قائل : وما الهوى[1] ؟ .

قال جوهرة النفس ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِقَ من تراب ، فكان الهوى هو عنصره الذى فيه جوهريته الترابية ، فكانت تلك الترابية متشعبة فى النفس ، وهو صفوة غذاء

---

(١) ذكر الحكيم الترمذى فى كتابه « منازل العباد من العبادة » المنزلة الخامسة تحت عنوان منزلة قطع الهوى انظر « منازل العباد من العباة) ص ٨٥ .